تحليلات سوسيولوجية حول التغيير والتحول الأسري

أ قشي صيفي*

Résumé

La plupart des analyses sociologiques relatives au changement de la famille (Algérienne) axent leurs efforts sur un seul facteur qui est la technologie et ses effets sur refonte du concept de la famille elle-même

Le présent article démontre au contraire que la constitution du concept de la famille est tributaire de plusieurs élèments : politique, social, économique et religieux avec l'impact de l'espace (urbain, rural.....etc).

الناحية النظرية للتحول

"إن عوامل تحول الأسـرة مـن المنظـور السوسـيولوجي وفي الطروحات النظرية تتناول هذا الموضوع من زاوية مختلفة سواء كان ذلك من الناحية المعرفية أو الاتجاهات التي في معظمها تؤكد على وجود محرك أولي ووحيد يمكنها من تفسير الاحتلالات التي تظهر بمرور فترة زمنيـة من دورة الحياة العائلية ، وتطبع أنساق الأسرة وتنظم الـزواج. هـذه الطروحات في حقيقة الأمر ليست نظريـات للأسـرة أو تفسـيرات سوسيولوجية من حيث التعميم والعالمية ؛ فهي عبـارة عـن فـروض "أحادية العامل" تنطلق من أن التغيير الأسري أو الاجتماعي هو نتيجـة لعامل - التكنولوجيا الناتجة عن الاختراع - وتحسن أدوات الإنتاج الـتي تنشط عملية التغيير.

هذا المنطلق تطغي عليه مسلمة رئيسية : وهي أن الآلة الإنتاجيـــة المستخدمة للوسائل المختلفة المتبعة في طرائق العيش هي التي تعمل علـــى تحول الكيان البشري ومختلف مقوماته الاجتماعية سواء كان ذلك علـــى المستوى المادي له ، وكما تعمل على تحديد الجوانب الفكرية والسلوكية وحتى السياسية داخل الوحدة العائلية والمجتمع هذه النظريات تكـــون في الغالب مدعمة بدراسات وبحوث كثيرة مبنيـــة علـــى أســـاس التغـــير الاقتصادي كدراسة انجلز (أصل العائلة والملكية ، وتكـــون الشـــخصية والدولة) ، (ميشال كروسية "صورة العائلة وصورة الاقتصاد").

غستوف : "تاريخ الارتباط العائلي والزوجي والعائلـــة القديمـــة" ودراسة لوبلاي : (العائلة والدخل).[1]

ما يمكن ملاحظته أن

أ- هذه الدراسات في عموميتها تحاول البرهنـــة علـــى أن نمـــط الإنتاج والعلاقات القائمة معها يقرران أشكال وأنماط ونظم العائلة وكذا الطبقة المالكة والمؤسسات المختلفة داخل المجتمع ، والطبقـــة الحاكمـــة وسياستها. هذه الفكرة الأخيرة نجد لها تأثيرا كبيرا في التراث الفكـــري الحديث الذي يعتني بدراسة الأسرة خاصة لدى أولئك الذين يسـعون إلى إعطاء وصفات كيفية تكون وإعادة بناء وتنظيم الأسرة. وبالرغم مـن أن هذا العامل المستقل والبارز وهو سبب فعلي إلا أنه ليس الوحيـــد بـــل تتزامن معه عوامل متعددة وبصورة متكاملة تعمل علـــى تغيـــير البنيـــة التركيبية والعلائقية والتنظيمية للأسرة حيث تتأقلم في الوسط الجديـــد ، هذا يعني أنه لا يمكن لنا فهم هذه المؤسسة وبناءها وظيفيـــا كظـــاهرة

إنسانية منعزلة عن بقية العوامل الأخرى سواء كانت داخلية أو خارجية. هذه الأخيرة متعلقة بالمجتمع الكبير ، بل يجب علينا التقرب منها والعيش داخلها لنتعرف عن منبع تفاعلاتها والسلوكات والتعاملات التي تميز كل واحدة منها والنظم والأنماط المختلفة التي تظهر بها داخل المجتمع الواحد متأثرة بالاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة والدين ، بكل أشكالها الحاضرة وبأبعادها التاريخية والحضارية التي تحرك حريتها وضرورتها الداخلية وتبقى مستمرة حتى في أصعب الوضعيات. كما أنها تتأثر بالأوضاع السكانية والبيئية الجغرافية حسب الفترات الزمنية المختلفة والوضعيات.فليس من الصدفة أن يدعم "المجتمع الزراعي التقليدي الثابت نسبيا" شكل الأسرة الممتدة ، الذي يشجع نظام تعدد الزوجات ويمنح الأباء حرية التصرف في اختيار الأزواج لأبنائهم كما يجنح إلى الزواج الداخلي لأن ذلك من حتمية متطلبات هذا النمط وكل عنصر أو عامل من العوامل السابقة تتلائم مع هذا البناء الاجتماعي الثابت نسبيا ويقابله في المجتمع الحضري الأسرار على شكل الأسرة ، المبنية على أساس الحب الرومنتيكي أو اللاواعي لزوجة المستقبل التي سيختارها الزوج والذي يفضل المترل المستقل [2] ، هذا يعني بأن لكل نظام اجتماعي معطياته الموضوعية التي تتحكم في مسار تغيره ولصورة ونظام الأسرة التي يبنها.

ب– وعلى العموم فإن التغير بالنسبة للوظائف الأسرية سواء كان ذلك راجع إلى عامل واحد أو لعدة عوامل على المستوى الريفي ، أو الحضري فالسبب الرئيسي يرجع بالدرجة الأولى إلى آليات وميكانزمات تتكون داخل المجتمع موضوع الدراسة، متأثرا بالثقافة السائدة وبالنظم

والضوابط والقيم ، وسبل وأنماط العيش والسياسة التي تستخلص مـــن تاريخ وحضارة في زمان ومكان ودين. وتترجم على شكل ممارسلت في ظروف موضوعية. وهذا ما يفسر مدى حركته هذه الظاهرة الاجتماعية التي لم تستطع أن تفسرها النظريات:خاصة منها التي تعتمد على العوامل الخارجية. لكن الأطروحات النظرية الحديثة يمكننا حصرها في إشـــكالها العاملية التي يركز عليها المهتمون بدراسة تحول الأســـرة بأنهـــا دائمـــة التكرار، العمومية في كل المجتمعات وهي تنحصر في : الجنس ، المنـــاخ ، السكان،الدين ، الاقتصاد،السياسة ، الثقافة ، التكنولوجية.

التكوينة الاجتماعية التنظيمية

إن التركيبة الاجتماعية للمجتمع من ناحية الجنس الـــتي تتبـــاين بحسب الطفولة والشباب والشيخوخة لها تأثير في تحديـــد نطـــاق بنـــاء الأسرة. والعامل السكاني ، كالزيادة في المواليـــد والوفيـــات والحركـــة السكانية كالهجرة الداخلية والخارجية التي تعمل على استعمال منـــاطق جديدة للاستيطان والتعمير يرافقها تغير في نمط المعيشة والتنظيم للأســـرة والذي يؤثر بدوره على نمط العلاقات التي تعمل على خلق توازن جديـــد لبناء الأسرة ووظائفها الجديدة.ويمكن لعامل الإيديولوجيا أن يعمل علـــى تغير البناء الفكري الموجه عن طريق مختلف وســـائل الإعـــلام كخلـــق مستوى تطوري جديد في حياة الأفراد ورسم صورة ووعي له بالمستقبل الاجتماعي والاقتصادي وتترجمه السلطة في برامج عملية عـــن طريـــق التربية والتكوين للمواطن وعمليات وقاية الطفولة والأمومة والشـــباب (الذين هم في المستقبل القريب أرباب عائلات ، يحلمون بالزوجة الرفيقة

الصديقة ، المستقلة المتفهمة للحياة الجديدة المتميزة بوحدانيـــة الـــزواج والتحكم في الإنجاب والمساهمين في الاقتصاد العائلي). هـــذه العوامـــل بدورها متأثرة بشكل مباشر بالبناء الاقتصادي الســـائد والممارســـات والتطبيقات التكنولوجية التي وصل إليها المجتمع وطرق وأساليب العمـــل وتقييمه. هذا يحتم على الأسرة بأن تحدد وتطور بناءها ووظائف أفرادهـــا لكي تتوافق مع النمط الاجتماعي والاقتصادي السائد الذي يطبع نظـــام الأسرة مباشرة ويميزها من مجتمع إلى آخر ويحركها ويـــنشط عناصرهـــا الدائمة (الأم، الأب، الأبناء).

ولكي تقرب تصورها أكثر يمكن تقديم الجدول التـــالـــي.

التخطيط الملخص لمعظم التحليلات السابقة – مخطـــط يوضـــع التنظيم العائلي وكيفيات ممارسة نشاطها وإنتاجها المادي والمعنوي (3).

أنماط الأنشطة الممارسة	نمط المؤسسة الفاعلة	الإنتاج النهائي للمجتمع
-تحديد العنصر البشري وتنشئته الاجتماعية -مقاومة البقاء	-الأسرة -اقتصاد ، طبيعة ، علاج ، ثقافة	-زواج ، حصوبة ، أمومة تكوين الشخصية -اندماج ، طلاق
-الإنتاج ، الاستهلاك، تنوع الحاجيات، الخدمات، صورة العيش. -أوامر ضابطة وقيم وتقاليد وعادات للحماية والاستمرارية. - التعليم — التنظيم.	-اختلاف وتنوع في نظمها وأدوارها ومراكز أفرادها. -سلطة، إدارة دين أعماق -معارف تنظم السلوك تكنولوجية تحسن مستوى العيش	-عمل، دخل، استهلاك، ترفيه، نقل، سكن، صحة عقلية، محيط/ مودة -أمن عمومي ، حرية، عدالة تفكير واعي وهادف، عيش مستقر، إحرام ولا سلم. -تعلم ورقي، فنون وإبداع

هذا التخطيط ما هو إلا محاولة مقارنة بين أهم العوامل التي تعتقد بأنها من صميم موضوع التغييرات الخاصة في المجتمعات المعاصرة وعلى سبيل التدقيق والتوضيح نظيف لكم مثال في المجال الاستهلاكي ؛ حول مدى توقعات تعين الوجبات الغذائية في استهلاك الموطن الجزائري في المدى القصير وتترك إمكانية التحليل على المدى البعيد.

المـادة المستهلكـة	الكمية الشوية للفرد 79كلغ	سنـــة 84	التـــوقعـات 89
الحبوب ، قمح ، عجين	200	198	170
بقوليات	6,1	9,45	9
الخضروات	57,8	69	120
الفواكه	44,4	45,2	50
اللحوم	12,2	15,35	18
الحليب ومشتقاته	72 ل	76	83

ويلاحظ أن نسبة أكثر 80% من هذه المستهلكات مســـتوردة ، بمعنى أنها ناتجة عن إنتاج غير محلي وعلى ضوء هذه المفارقـــة والتحليـــل الكمي يمكننا الانتقال إلى الجوانب السوسيولوجية للأســـرة في النظـــم العربية والشمال الإفريقية على وجه الخصوص.

تنظيم الأسرة في العالم العربي وعلى الخصوص دول شمال إفريقيـــا

أ- إن تنظم الأسر وتمكينها من اعتماد بنـــاء وظيفـــي متكـــامل يتجاوب مع تطورات العصر ويستطيع أن يعطيها بقاء واستمرارية متميزة بصورة دائمة تحتم علينا إجراء دراسات معمقـــة حـــول الانعكاســـات المتنموية السريعة ومدى تأثيرها على النسق العام للمجتمع من الناحيـــة الخارجية ونسق العائلة كخلية أولية منها يبنى وعليه تعتمد بصورة تبادليـة وتكاملية. وكذلك محاولة التعرف على كل الأشكال والأنماط المحركـــة بصورة ديناميكية لنظام ووظائف الأسرة وهو ما توضحه بعض الأعمـــال الجادة حديثا والتي تؤكد على أن التغييرات المهنية من الممكن أن تتشـــابه

في المجتمعات النامية ؛ لكن العناصر المتعلقة بدرجة التعلم تكون عكـــس ذلك في العالم، وحتى في المجتمع الواحد وأيضا داخل الأسرة متعلم غـــير متخلق متعلم يعتدي على الوالدين،يحب ذاته أكثر منـــهذه التصرفـــات بدورها تتأثر بالمحيط الحياتي والعمراني والديني والسياسي السائد، وهـــذا هو المنطلق الذي يبدأ منه الاجتماعي لينظر أو يطابق (في وسط معـــرفي جاهز في بعض الأحيان أو لم تكتمل صورته بعد في مجتمعاتنا) ويصـــل بالتالي إلى اقتراح يقرر ويصبح قرارا لنمط العائلة المنشود.

لكن الفاصل الفكري أو التفكيري حول هذا الموضوع الحســـاس الذي تتداوله معرفة مازال الجدل ، ومعرفة تتبنى متطلقات ومســـلمات نابعة من منابع مترلة بعبارة "أشجـــع من منطلق إسلامي يحثني ويبصـــوني بأن الحياة لها طعمين والزمان أربعة "ماضي ، حاضر ، مستقبل،فلكـــي" وزمان مشتاق إليه بكل موضوعية فيه يوم كألف سنة فلكية. وقد يـــزداد الفارق التصوري بيننا كلما تعمقنا في معرفة نظام وظـــائف الأســـرة. فالجنس شيق والمرأة تخص بنقاش أوفر.

فالتعليم من الممكن أن يعطي للمجتمع مميزات التغير في الاتجـــاه التصاعدي السالف الذكر وأيضا يمكنه من إعطاء الصفـــات التنازليـــة كالتمسك الكبير بالأصالة إلى درجة التطرق. هـــذه المظـــاهر المميزة للمجتمعات العربية والواقعية منها في الشمال الإفريقي -ليبيا-تونـــس-الجزائر-المغرب- نعرف عنها القليل من السوسيولوجيا والكثـــير مـــن السياسة فهي كلها بلدان سائرة في طريق النمو بمضامين وأساليب مختلفـــة بمعنى أنها تعيش حركة سريعة في زيادة الإنتاج الصناعي ، وكغيرهـــا في

الاستثمار في مجالات التحديث ، يرافق ذلك تزايد كبير في نمو الطبقة العاملة عادة ما تكون على حساب المجتمع الريفي الذي يستخدم كخزان يسترف بالهجرات المتتالية ، لاستلام وظائف عمل جديدة. ويلاقي وسطه هذا تصادما كبيرا بين عادته وتقاليده المكتسبة بعادات وتقاليد جديدة مستوردة أو غير مكتملة.[4] هذه المظاهر يمكن مشاهدة البعض منها على مستوى المجتمع الجزائري في النصف الأخير من القرن الماضي حسب تغيرات نسبة سكان الريف "79% من مجموع السكان سنة 1956 الذي كان يقارت 13 مليون نسمة إلى 59% من مجموع السكان سنة 1976 إلى أقل من 45% في بداية الثمانينات ، هذه الحركة شجعتها تغيران في البنيان الاقتصادية المركزة في المدن الكبرى، مما أدى إلى تراكم العائلات على شكل محتشدات غير منضمة ، هذا التغير يصدق لأن الثورة وعدم الاستقرار أيام الاستعمار خلق "محتشدات في ضواحي المدن الكبرى وتوسعت أثناء الاستقلال بالإضافة إلى تعمير المساكن الشاغرة التي تركها المعمرون. لكن هذا التوسع في السبعينات أصبح على حساب الأرضي الشاغرة والفلاحية ، وذلك ببناء المساكن والبيوت القصديرية شوهت معظم المدن. من الناحية الاجتماعية قد يفسر هذا بأحداث تاريخية تحول وتشوه البناء الاجتماعي والعلائقي للأسرة. وتتأثر فيه بالخصوص أحاسيس الأفراد وتتوتر علاقاتهم بالمحيط وتتفكك وظائف العائلة بعد مقاومة مقاومتها الشديدة للمحافظة على النظام القديم للعائلة الممتدة. كما ينتج عنه زيادة في متطلبات أفرادها

الاستهلاكية وتغيرات في أنماط العيش في الوسط المدني الجديد مما عرقـــل السياسات العامة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

أما القوانين والممارسات السياسية التي بدأت تدعو إلى إعادة النظر في تنظيم الأسرة، فإن التنظيم الأول إذا أحسن أحكامه تمكن المجتمع مـــن استدراك وتدارك الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الكفيلـــــة ببقاء نوع أفراده ويكون ذلك عن طريقة تطبيق أســـــاليب موضوعيـــة منظمة للأسرة تضمن للفرد حريته وتضمن حياة جماعية .

ب– لكن هل الهدف من تنظيم الأسرة هو محاولة لإعادة تنظيـــم وظائفها بما فيها وظيفة التكاثر التي تعني عند البعض المحافظة على النـــوع وعند آخرين تحسن النوع أو من أجل المحافظة على اســـــتمرارية الإرث العائلي وديمومته في الزمان والمكان. أم تنظيمها أو إعادة هيكلتها كـــــي تتجاوب وتتواءم والبناء الاقتصادي والسياسي للســـــائد؟. أم ببســـاطة تنظمها لكي تكون مستعدة للقيام بوظيفة الإنتاج والدفـــاع والإنعـــاش المنشودين من طرف الدولة.

مناقشـــة وتقييـــم

لقد رأينا أن الطروحات النظرية والدراسات الميدانية التي تنـــاولت تغير الأسرة تركز على أن المبتكرات الإنسانية التي تحـــدث التحـــولات العميقة داخلها تمكن بالدرجة الأولى من تنظيم العلاقات السائدة بـــــين الأفراد كعلاقة الزوج بالزوجة وبين الأبناء والأباء وبين الجيل والآخـــــر وبين الجنسين. وهي كلها يمكن تتبعها من خلال تغيرات الدور المركـــزي كما تركزو على البناء التطوري للفرد الذي يحدث استقلالية شخصية في

التصرفات السلوكية والاجتماعية ويجدر بهذه الدراسات أن تمنـــح كـــل هذه المتغيرات دورا متناسبا في تحديد مهام الأسرة.

المراجـــــع

[1]- أ- سوروكين ،المدرستان الاقتصادية والميكانيكية في علم الاجتماع ، ت ح الكعبي، دار الحداثة للطباعة والنشر بيروت، بدون تاريخ، ص77-87.

[2]- د.سناء الخولي ، الزواج والعلاقـــات الأســـرية ، دار النهضـــة العربيـــة مصر1983، ص161. الأسرة.

[3]- أنظر المجلة العالمية للعلوم الاجتماعية ، إينسكوا... رقم 27 مقال خـــاص لتخطيط الأسرة في العالم العربي ص105-195.

[4]- المجلية الإحصائية لدورات الإحصاء والتخطيط رقم 3 سنة 87ص9.

----------* جـــامـــعـــة عنـــابـــة